

سادسا: الهجرة إلى المدينة:

لقد سعى الرسول ﷺ بعد أن تمت بيعة العقبة الثانية مع أهل المدينة في شهر ذي الحجة من السنة الثانية عشر للبعثة على تشجيع أصحابه المكيين للهجرة إلى المدينة قبل أن يهاجر هو بنفسه وذلك من أجل توجيه عملية الهجرة والاطمئنان على وصول أتباعه إلى المدينة بسلام واستقرارهم فيها.

يقول ابن إسحاق أنه حين أمر الرسول ﷺ أصحابه المكيين "بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال: إن الله عز وجل جعل لكم إخوانا ودارا يأمنون بها. فخرجوا إرسالا - أي جماعة في أثر جماعة -، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة" (3).
وقد حاول المهاجرون أن يحيطوا أمر مغادرتهم لمكة بجو من الهدوء والسريّة كي لا يثيروا حفيظة قريش عليهم فتعمد إلى منعهم من الهجرة واضطهادهم "فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك" (4). غير أن المحافظة على

(1) سورة البقرة: الآية 193.

(2) الطبري: التاريخ، ج 2، ص 366، ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 226.

(3) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 468.

(4) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 226.

الباب الأول / الفصل الرابع: البحث عن موطن جديد للدعوة الإسلامية

سرية الهجرة في مدينة صغيرة مثل مدينة مكة كانت أمراً في غاية الصعوبة وبخاصة وأن بعض الأسر قد هاجرت بأكملها مثل بني مظعون وبني جحش بن رئاب الكبير فإن دورهم غلقت بمكة هجرة، ليس فيها ساكن^(١).

ويبدو أن بعض الأسر المكية قد حاولت منع أبنائها من الهجرة باستخدام القوة ضدهم وعملت على فتنهم عن دينهم. فقد ذكر ابن إسحاق أن عمر بن الخطاب حينما أراد الهجرة إلى المدينة اتفق مع عياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاصي على أن يلتقوا في وقت ومكان محدد، فإن تخلف أحدهم عن الموعد فمعنى ذلك أنه قد حبس فليمضي صاحبه، فلما حان الوقت المتفق عليه، حضر عمر بن الخطاب وعياش بن أبي ربيعة وحبس هشام وفتن وافتن^(٢).

وقد مارس زعماء المشركين الضغط على الموالى والمستضعفين لمنعهم من الهجرة. فقد ذكر ابن هشام أن "صهيباً حين أراد الهجرة قال له كفار قريش آتينا صعلوكاً حقيراً. فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب: رأيتم أن جعلت لكم مالي اتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم، قال: فإني جعلت لكم مالي قال: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: ربح صهيب، ربح صهيب^(٣)".

وقد ترتب على الهجرة انقسام بين أفراد الأسرة الواحد في حالة اختلافهم في العقيدة، فقد رفضت زوجات بعض المسلمين ممن كن لا زلن على الشرك الهجرة مع أزواجهن إلى المدينة، فأمر الله المسلمين بطلاقهن: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾^(٤)، كما أشار إلى مثل هذه الحالات بقوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾^(٥). كما أن بعض النساء المؤمنات تركن أزواجهن الكفار وهاجرن إلى المدينة. وقد أشار القرآن الكريم إليهن بقوله: ﴿يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ

الباب الأول / الفصل الرابع: البحث عن موطن جديد للدعوة الإسلامية

163

إِلَى الْكَافَرِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ هُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ٤ (١). وكان ممن هاجروا من المؤمنات أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وأميمة بنت ليث، وقد قام المسلمون بدفع صداقهما إلى زوجيهما الكافرين (٢).

ويلاحظ أن متطلبات الهجرة في ذلك الوقت لم تكن سهلة، وبخاصة لضعفاء الناس وفقرائهم، فكان بعضهم يضطر للسفر على قدميه من مكة إلى المدينة نظراً لعدم وجود راحلة يستعين بها في سفره. فقد ذكر ابن سعد أن المهاجرين كانوا يخرجون من مكة إلى المدينة مشاة وركباً "أما أهل القوة فركباً ويعتقون، وأما من لم يجد ظهراً فيمشون" (٣).

وعلى الرغم من كل المصاعب التي كانت تقف وراء الهجرة وتحيط بها، فقد هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة، وكان عدد المهاجرين سبعين مسلماً (٤)، ولم يبق في المدينة أحد من المسلمين "إلا من حبس أو فتن" (٥).

ويبدو أن عدد المحبوسين والمفتونين عن دينهم في مكة لم يكن قليلاً، لذا فقد استحق الموضوع معالجة القرآن له في عدة آيات نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُجَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ١٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَتَتَدُونَ سَبِيلًا ١٨ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ١٩ (٦).

وتشير المصادر إلى أن المسلمين حين هاجروا من مكة وتركوا دورهم أمانة عند قومهم، فحافظ قسم منها عليها ولم يمسه بسوء، وفي حين تصرف القسم الآخر بها وبيعها. لذا فقد قام حسان بن ثابت بمدح من أمسك على "دور من هاجر من قومه عليهم" ووذم بعض من باع دور من هاجر من قومهم (٧). وقد ذكر ابن إسحاق أنه "لما

(١) سورة الممتحنة، الآية ١٠.

(٢) العلي: الدولة في عهد الرسول، ص ٨٣.

(٣) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٢٧١.

(٤) وات، محمد في مكة، ص ٢٣٦.

(٥) ابن هشام: السيرة، ق ١، ص ٤٨٠.

(٦) سورة النساء، الآية ٩٧-٩٩.

(٧) ابن بكار، الزبير، جمهرة نسب قريش وأخبارها، القاهرة ١٣٨١ هـ، ج ١، ص ١٦٠-١٦١.

الباب الأول / الفصل الرابع: البحث عن موطن جديد للدعوة الإسلامية

خرج بنو جحش بن رثاب من دارهم، عدا عليها أبو سفيان بن حرب فباعها...⁽¹⁾ كما أن عقيل ابن أبي طالب قام بأخذ البيت الذي ولد فيه الرسول ﷺ وباعه بعد هجرته وكذلك فعل معتب بن أبي لهب بأخذه بيت خديجة زوجة الرسول ﷺ وبيعه⁽²⁾ وهكذا كانت الهجرة عملاً عظيماً بكل ما تنطوي عليه من تضحية بالأهل والموطن والمال في سبيل الحفاظ على حرية الفكر والعقيدة، فلا عجب ألا يستطيع الإقدام عليهما إلا الصفوة من المؤمنين الصادقين.

سابعاً: هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة.

مكث الرسول ﷺ في مكة بعد بيعة العقبة الثانية بقية ذي الحجة وشهري محرم وصفر، تمت خلالها هجرة جميع أصحابه إلى المدينة عدا من حبس أو افتتن⁽³⁾. ولم يبق مع الرسول ﷺ في مكة سوى علي بن أبي طالب وأبي بكر الصديق بناءً على طلبه. ويبدو أن زعماء المشركين في مكة قد أدركوا خلال هذه الفترة مخاطر نجاح الهجرة على مصالحهم الاقتصادية والسياسية والدينية، فاجتمعوا في دار الندوة للتشاور فيما يجب عليهم عمله لمواجهة الموقف. قال ابن إسحاق، "ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً" وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة - وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها - يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه⁽⁴⁾.

وقد أشير إلى أنه قد حضر اجتماع الندوة عدد من زعماء قريش الذين يمثلون عشائر نوفل وعبد شمس وعبد الدار وأسد ومخزوم وسهم وجمح، ويلاحظ أن هذه العشائر كانت قد اتخذت موقفاً مناوئاً للعشائر المكية التي ساهمت في حلف الفضول والتي كان بضمنها عشيرة الرسول ﷺ، أي بنو هاشم⁽⁵⁾، فلا عجب أن تعمل على اتخاذ موقف شديد من رسول الله ﷺ.

لقد ذكر ابن إسحاق أن زعماء المشركين تداولوا في حبس الرسول ﷺ أو نفيه

خارج مكة أو قتله | وقد أجمع رأيهم أخيراً على قتل الرسول ﷺ استناداً إلى خطة اقترحها أبو جهل بن هشام وهي حسب قوله: " نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسبياً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه " (1)، وبذلك يتفرق دمه في العشائر جميعاً، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم فيرضون بأخذ الدية (2).

وقد ذكرت المصادر أن الرسول ﷺ قد عرف بهذه الخطة وأشار إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ (3) لذا فقد سارع الرسول ﷺ إلى إعداد خطة الهجرة إلى المدينة بصورة تعتمد أعلى درجات السرية من أجل إحباط خطط المشركين ومكرهم (4).

وكانت خطة الرسول ﷺ في الهجرة تقوم على تكليف علي بن أبي طالب في المبيت في فراشه كي يوهم المشركين بأنه ما زال في داره ليلة الهجرة، ثم يقوم باصطحاب أبو بكر الصديق ﷺ في هجرته إلى المدينة.

وقد قام أبو بكر الصديق ﷺ بشراء راحلتين للسفر واستأجر دليلاً اسمه عبد الله بن أرقط ليصحبهما في سفرهما. كما تولى أبو بكر مع الرسول ﷺ وضع خطة مغادرتهم مكة وتأمين وصول الطعام إليهما بطريقة لا تسمح لقريش باكتشاف موضع اختفائهما. وقد ذكر ابن إسحاق "أن الرسول ﷺ وأبا بكر خرجا بصورة سرية إلى غار ثور، وهو جبل بأسفل مكة فدخلا، وبقياً فيه ثلاثة أيام مختلفين يعيشون على لبن أغنام كان يرعاها عامر بن فهيرة مولى أبو بكر الصديق بالإضافة إلى طعام كانت تأتيهم به أسماء بنت أبي بكر (5). حتى إذا خف الطلب ويشت قريش من العثور عليهما خرجا من الغار واتجها صوب المدينة سالكين طريقاً غير الطريق الاعتيادي المألوف الذي كان يسلك الوديان والسهول الساحلية " وكان أبو بكر يعرف هذا الطريق وأهله من سفراته السابقة إلى بلاد الشام " (6).

يقو في الغار ٣ أيام

كيف كانوا يتغذون

١- على لبن الأغنام التي يرعاها

٢- عامر بن فهيرة مولى أبو بكر

٣- كانت أسماء بنت أبي بكر

تهدلهم الطعام وتأتيهم به

(1) المصدر نفسه، ق 1، ص 482

(2) المصدر نفسه، ق 1، ص 482

(3) سورة الأنفال، الآية 30.

(4) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 480.

(5) المصدر نفسه، ق 1، ص 484-492.

(6) العلي: الدولة في عهد الرسول.

منايات
في فراشها
البي

صاحب
الرسول في
هجرته

ما هو اسم
الراجل

الباب الأول / الفصل الرابع: البحث عن موطن جديد للدعوة الإسلامية

لقد استغرقت رحلة الرسول ﷺ إلى المدينة منذ أن غادر الغار في جبل ثور في 4 ربيع الأول، إلى أن وصلها في 11 ربيع الأول من عام 13 للبعثة المصادف 24 أيلول سنة 622م ثمانية أيام. وكان يصحبه في هذه الرحلة أبو بكر الصديق ودليلهما عبدالله بن أرقط وعامر بن فهيرة⁽¹⁾.

لقد كان أهل المدينة يتربصون وصول الرسول ﷺ كل يوم إلى مدينتهم بفارغ الصبر بعد أن سمعوا بخروجه من مكة، وقد ذكر أنهم كانوا يخرجون للقاءه في كل يوم من بعد صلاة الصبح ويبقون في انتظاره حتى يشتد عليهم الحر فيعودون إلى بيوتهم. وقد وافق وصول الرسول ﷺ قباء وهي ضاحية على حدود المدينة في وقت الظهر، وكان الأنصار قد عادوا إلى بيوتهم فشاهده أحد اليهود فراح ينبه أهل المدينة بقوله: يا بني قيلة هذا جائكم قد جاء⁽²⁾. فخرج أهل المدينة لاستقباله فرحين. وقد قدم لنا أنس بن مالك وصفاً لاستقبال أهل المدينة للرسول ﷺ وحفواتهم به بقولهم: "إني لأسعى في الغلمان يقولون جاء محمد، فأسعى ولا أرى شيئاً، ثم يقولون جاء محمد فأسعى ولا أرى شيئاً، قال حتى جاء رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر. فكنا في بعض خراب المدينة، ثم بعثا رجلاً من أهل البادية يؤذن بها الأنصار فاستقبله زهاء خمسمائة من الأنصار حتى انتهوا إليها فقالت الأنصار: انطلقا آمنين مطاعين. فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم فخرج أهل المدينة حتى إن العوائق - أي الحرائر الشريفات - فوق البيوت يتراءينه يقلن أيهم هو، أيهم هو؟ فما رأينا منظراً شبيهاً به"⁽³⁾.

إن الوصف المتقدم يدل على أن وصول الرسول ﷺ إلى المدينة كان بمثابة عيد للمسلمين حيث خرج لاستقباله حوالي خمسمائة رجل من الأنصار معبرين عن ترحيبهم وسرورهم بمقدمه. وقد شاركهم في التعبير عن هذه المشاعر النساء والأطفال.

ولم يعكر صفو هذا الاستقبال الحافل أي مظهر من مظاهر المعارضة أو الاستياء المعلن من غير المسلمين، سواء أكانوا من المشركين أم من اليهود مما يدل على قبولهم الضمني لهجرة الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

وهكذا فقد تشكل موقف أهل المدينة من الرسول ﷺ استناداً إلى المعطيات

(1) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 487-491-492، ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 232-233، وات: محمد في مكة، ص 238.

(2) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 492.

(3) ابن كثير: السيرة النبوية، ج 1، ص 381-382، السهودي: وفاء الوفا، ج 1، ص 255.

الاجتماعية والعقائدية على النحو الآتي:

1. المسلمون من الأوس والخزرج، وكان ولاؤهم للرسول ﷺ كاملاً بحكم إيمانهم بأنه رسول الله إليهم ومبايعتهم له على السمع والطاعة. وكان يشاركونهم هذا الموقف بطبيعة الحال إخوانهم المهاجرون الذين وصلوا إلى المدينة قبل وصول الرسول ﷺ بفترة وجيزة.

2. المشركون من الأوس والخزرج، وكان موقفهم يقوم على التضامن مع قومهم المسلمين استناداً إلى الأعراف والتقاليد العربية التي توجب على أبناء القبيلة التضامن واحترام حقوق بعضهم بعضاً في منح حق الجوار لمن يطلبه وإقامة التحالفات مع الأفراد والجماعات.

3. اليهود، كان يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وغيرهم من يهود المدينة حلفاء للأوس والخزرج. ومن ثم فقد كانوا ملزمين باحترام عهود حلفائهم والتضامن معهم في مواقفهم العامة. لذا فقد أظهر اليهود ترحيبهم بمقدم الرسول ﷺ إلى المدينة. وربما توقعوا أن تجلب هجرة الرسول ﷺ إلى مدينتهم الأمن والاستقرار الذي افتقدته بسبب الصراع الشديد بين مختلف الفئات المتنافسة.

لقد كان عمر الرسول ﷺ حين وصل المدينة حوالي ثلاث وخمسين سنة، أمضى ثلاث عشرة سنة منها بدعوة قومه إلى الإسلام، فلم يستجب له منهم إلا القليل، وقد هاجروا معه إلى المدينة، موطن الدعوة الجديد، فكيف ستكون السنوات القادمة بين هؤلاء المؤمنين الجدد، وما المصاعب والتحديات التي سيواجهها على طريق بناء مستقبل الدعوة في مرحلتنا الجديدة.

إن للباحث أن يتصور أن الرسول ﷺ قد دخل المدينة وهو يتمثل في ذهنه الآيات القرآنية التي أذن الله تعالى له بموجبها في الهجرة من مكة إلى المدينة ⁽¹⁾: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾ ⁽²⁾.

(1) ابن كثير: السيرة النبوية، ج 1، ص 360.

(2) سورة الإسراء، الآية 80.